(الفصل الخامس)

"اصطدام"

أخذ فضول نور الدين يسبق خطواته باتجاه ذلك البيت الذي لمحه من بعيد، حتى وصل إليه بالفعل. عندما اقترب نظر حوله، فلم يجد أحدًا بالداخل، لم يجد سوى بضع عنزات وخراف، يبدو من الداخل كخيمة بدائية لا أكثر ولا أقل، لا توجد بها أي مقومات للحياة، وجد فراشًا على الأرض، عبارة عن بطانية قديمة مطوية؛ فاندهش هل يمكن أن يعيش أحد في هذا البيت المتواضع جدًّا الأشبه بالخيمة؟ ثم التفت مفزوعًا على صوت آتٍ من خلفه بلهجة بدوية قائلًا:

- **من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟ من الذي أرسلك؟**

لم يكن الصوت فقط هو الذي يتحدث، كان هناك أيضًا مسدس مصوب نحو رأس نور الدين من الخلف؛ تجمد في مكانه مرتعدًا من شدة الخوف، وقد رفع يديه معلنًا استسلامه دون أن يلتفت وبصوت مرتجف أجاب:

- **عفوًا، عفوًا، لم يرسلني أحد، أرجوك أعطني الفرصة لأشرح لك الأمر، وأخفض هذا المسدس من فضلك؛ فأنا لن أؤذيك، أرجوك كن هادئًا.**

استجاب صاحب الصوت لنور الدين، وبالفعل أخفض المسدس، ثم قال:

- **التفت لأرى وجهك.**

فالتفت لينظر إلى صاحب الصوت البدوي، فإذا به شيخ كبير، ينظر إليه بعينيه الثاقبتين في ترقب، ثم قال:

- **هيا أخبرني، من أنت؟**

فأجابه نور الدين وقد ازداد توترًا وخوفًا؛ فالرجل يبدو عليه أنه قاطع طريق أو ما شابه، مظهره جد مريب ومخيف.

-أنا... أنا... نور الدين، المهندس الزراعى الجديد، استلمت اليوم أرضي في المشروع الذي هناك، هذا الذي تراه على بعد أمتار من هنا.

- ولقد رأيت بيتك من هناك فجئت للتعرف، شعرت بالأمان وأحببت أن أتعرف إلى سكانه؛ وذلك لأني شعرت بالوحدة فأردت الاستئناس، هذا كل ما في الأمر صدقني.

فنظر إليه الشيخ في صمت، ثم قال:

- **الأمر هكذا إذن؟**

ثم تابع:

- **مرحبًا بك يا بني.**

فاندهش نور الدين من نبرة صوت الشيخ التي تحولت من القسوة والجفاء إلى نبرة الترحيب، فتابع الشيخ حديثه:

- **وما الذي أتى بك إلى هنا؟ مما تفر أنت الآخر؟**

ازدادت دهشة نور الدين؛ فمن أين للشيخ أن يعلم بأنه بالفعل قد أتى إلى هنا هاربًا؟ فابتسم الشيخ قائلًا:

- **يا بني، هنا آخر قطعة من أرض مصر على الحدود، لا يأتي هنا إلا من يريد الهروب مثلي هكذا.**

فاستجمع نور الدين نفسه، ثم رد مستفهمًا:

- **مثلك؟ ومما تفر يا عم؟ ما اسمك يا شيخ؟**

فأجابه الشيخ مبتسمًا:

- **اسمي حامد تعال لنشرب الشاى أولًا، ثم أحكي لك حكايتي، وتقص عليَّ حكايتك.**

- **هل تعلم، لأول مرة منذ عشرة أعوام أتحدث إلى أحد؟**

فازداد نور الدين دهشة وحماسًا لمعرفة حكاية هذا الشيخ الغامض، وجلس يحتسي معه الشاي، وتبادلا أطراف الحديث فقال:

- **شيء عجيب، كيف تتحمل الحياة هكذا وحيدًا؟**

فابتسم الشيخ حامد في أسى وحزن قائلًا:

- **يا بني، بعد فترة من الزمن، بعد أن تعتصرك الأيام بآلامها وأحزانها، بعد أن تأخذ الدنيا منك أعز أحبائك، بعد أن تتكالب عليك الضباع لتنهش لحمك،**

وبعد أن يظلمك القريب قبل الغريب؛ تصبح الوحدة هي ملاذك الأخير مجبرًا، فلقد كنت في مثل عمرك هكذا تقريبًا، كنت مهندسًا ناجحًا، لي أسرة، زوجة، أولاد، حياة مستقرة بالقاهرة، كنت شابًا وشريفًا، فلم أقبل يومًا بأن أكون فاسدًا كما كانوا يريدونني أن أكون، رفضت الرشاوى وأن أصبح غنيًا من حرام، لكن زوجتى كانت تريد أن تحيا حياة ثرية؛ فكانت المشاكل بيننا دائمة على المال، لماذا لا أكون مثل أصدقائي الذين أصبحوا أغنياء وتكسبوا من عملهم؟ وهكذا. في أحد الأيام كنت أزور أحد أصدقائي في منزله، لم يكن يعلم بأنني سوف أذهب إليه، عندما فتح لي الباب ارتبك وكأنه رأى شيطانًا، ثم سمعت صوتًا يأتي من الداخل، ينادى عليه، وإذا بهذا الصوت هو صوت زوجتي، وكالعادة في مثل هذه المواقف، وكما يحدث في أفلام السينما، لم أتمالك نفسي عندما رأيتها في منزله؛ فدفعته ودخلت، انقضيت على حنجرتها لأقتلها،الخائنة، لكنه دفعني ثم أحضر مسدسه وحاول أن يقتلني؛ فدفعته، وخرجت الطلقة فأصابت زوجتي في رأسها فماتت على الفور، حاول هو أن يقتلني، لكنني استطعت أن أستحوذ على المسدس، وأطلقت عليه الرصاص فسقط قتيلًا في الحال، تركتهما وفررت هاربًا تاركًا أولادي خلفي، ولدًا وبنتين، تركتهم لأختي، وكان أهل هذا السافل من الصعيد، فأقسموا

على أخذ ثأر ابنهم مني، ومنذ ذلك اليوم وأنا هنا أعيش وحيدًا، طريدًا حتى استقررت بهذا البيت أرعى غنمي وأبكي حالي وحسرتي.

سمع نور الدين حكاية الشيخ حامد وهو لا يصدق ما يسمعه؛ فحقًّا كما كان يشاهد في الأفلام والمسلسلات، وقد تأثر كثيرًا، ثم ابتسم قائلًا:

- **يا عم حامد فلتعتبرني منذ اللحظة ابنًا لك، واسمح لي بأن أزورك هنا يوميًا، فأنا أيضًا وحيد ولا أحد لي هنا.**

ثم حكى له حكايته هو الآخر، وأنه قد هرب من ماضيه، ومن خيانة خطيبته له، واتفقا الاثنان على أن المرأة شيطان، وأنها رأس كل المصائب.

في المساء عاد نور الدين إلى سكنه، ففتح غرفته ودخل وأغلق الباب خلفه، ثم استلقى على فراشه ليستريح، وفي هذه اللحظات سمع صوت فيروز تغني، فنهض من فراشه ونظر حوله، ثم قال لنفسه **"يبدو أنني قد تركت الراديو مفتوحًا"** ثم نظر إلى الراديو فوجده مغلقًا؛ فشعر بالارتياب والخوف للحظة، ثم قال لنفسه **"لا بد أنني أتوهم، نعم، فالأفضل أن أنام الآن"**.

ثم استلقى في فراشه وحاول أن ينام، وعندما أغمض عيناه سمع صوت مفتاح يتحرك في باب الغرفة المجاورة لغرفته، ففتح عينيه في فزع، وقد شعر بالرعب حقًّا هذه المرة، فالمكان خالٍ، ولا يوجد به أحد غيره، ثم نهض من فراشه، وحاول أن يتقدم من الباب الذي يفصل الغرفتين عن بعضهما، وأخذ

يحرك المفتاح ليفتح الباب، ليرى ماذا يحدث؟ وما هى تلك الأصوات المرعبة المنبعثة من تلك الغرفة؟ وهو يقرأ آيات القرآن الكريم، وفي هذه اللحظة عندما فتح الباب الذي يفصل بين الغرفتين، سمع صوت صراخ، فلقد كانت ناردين هي التي تصرخ؛ فلقد ظنت هي الأخرى بأن الباب يفتح بمفرده، وأنه لا يوجد أحد غيرها في المكان، وعندما سمعت صوت المفتاح الذي يحركه نور الدين ارتعبت وخافت كثيرًا، وعندما سمع نور الدين صوت الصراخ، ارتعب بدوره ودفع الباب في خوف شديد، فإذا به يرى ناردين جالسة في فراشها، وهي مغمضة العينين واضعة يديها على أذنيها وتصرخ في هستيريا.

كانت المفاجأة لنور الدين؛ فلقد ظن أنه يتوهم، وأن هذه الفتاة ما هي إلا شبح ليست حقيقة، فوقف مكانه متجمدًا للحظات، ثم اقترب منها وهو يقرأ آيات القرآن الكريم بصوت مرتفع، حاول لمسها ليتأكد أن كانت حقيقة أم خيال يراه هو، وعندما أمسك بيديها صرخت أكثر، وفتحت عينيها من شدة الرعب، ولكنها سكتت فجأة عندما رأته أمامها، فلقد صدمت، لم تتفوه بحرف، فكل ما أتى بتفكيرها في هذه اللحظة أن هذا الذي يمسك بيدها، ما هو إلا شبح في صورة ذلك الشخص السيئ الذي قابلته، فأخذت هي الأخرى تقرأ آيات القرآن الكريم، وتستعيذ بالله وتدعوه أن ينجيها من هذا

الكابوس، وفي نفس اللحظة كان نور الدين يفعل نفس الشيء حتى انتبه الاثنان، فصمتا وهما ينظران إلى بعضهما بعضًا، ثم قالا وبنفس واحد **"مستحيل، أنتَ/ أنتِ؟!"**.